



كنت ماراً بمكتبه في الصباح الباكر ذاهباً إلى مكتبي في الجامعة فأشار لي زميلي "د. يافوس" بيده لأدخل إلى غرفته وأغلق الباب وفاجأني بسؤاله "ماذا لو كان ذلك الرجل عربياً أو سورياً؟ هل كانت ستتعاطى قنوات "دوغان" وإعلامه اليساري مع الحدث كما فعلت أم كانت ستعلو لهجة العداء والكره للأجنبي العربي خاصة؟"

قلت لك أكثر ما يخيفني هو أن يقوم أحد السوريين بارتكاب جريمة أو أي عمل مشين، وصدقني ستتكلب عليه وكالات الأنباء الخبيثة والصحف الصفراء لكي تبث سموم الكره والعداء للغرباء وتعلن صوت القومية ونعرات العرقية البغيضة وستلعب على وتر اللاجئين والأجانب الذين احتلوا البلد وشغروا الوظائف واستحوذوا على خيرات ومقدرات تركيا وضاقت بهم المواصلات والطرق.

القصة يا عزيزي أن وسائل التواصل الاجتماعي التركية عجبت بمقطع من كاميرا المراقبة في إحدى المحلات التركية في منطقة "أكسراي"، المنطقة التي يقطنها العديد من الأجانب وخاصة العرب والسوبيون. يظهر هذا المقطع المصوّر رجلاً يفتح ثلاجة المشروبات ليأخذ بعضاً من زجاجات المياه الباردة، ولكنه وللأسف جذب باب الثلاجة بقوة شديدة، إذ ظهر بعد ذلك أنه ملاكم إيرلندي محترف، فتساقطت معظم زجاجات الماء على الأرض، فخرج صاحب المحل معزراً وصارخاً، فارتفع الأصوات ومن ثم الأيدي والأرجل وهرع جيران صاحب المحل بالعصي والكراسي وانهالوا ضرباً على السائح الإيرلندي الأربعيني.

ولكن الأخير لم يستسلم بل كالبعض اللكلمات والركلات إلى المهاجمين فأسقطهم أرضاً، إذ لم يستطع أحدهم الوقوف على رجليه بعد تلقي تلك اللكلمات القاسية.

ثم يظهر الفيديو الرجل يهرب من بين أيديهم بعد أن تکاثروا عليه ويعود إلى الفندق، ثم يخرج مرة أخرى يقاتل إلى أن كسرت يده وأخذه البعض إلى المستشفى ومن ثم إلى الشرطة.

لقد أثار هذا الفيلم الهوليوودي مشاعر غريبة في نفس صديقي د. يافوس ما دفعه إلى استحضار صورة افتراضية كثيرة ما حدثني عنها وهي خشته من أن ينجح الإعلام اليساري القومي القمي، باستغلال أي حدث أو عمل مشين من قبل عربي يعيش في إسطنبول، في أن يزرع بذور الفتنة والكراهية بين الأتراك وضيوفهم الفارين من رمضاء بلادهم وظلم أوطانهم لهم، مهاجرين إلى تركيا أرض الأنصار والطيب أردوغان.

لا ينكر فضل الأتراك وكرمهم إلا جاحد، ولا يتجمى عليهم إلا أعمى أو متعمِّمٌ بما قدمته وما تقدمه تركيا لضيوفها عبر السنوات السابقة وما تعرضت له نتيجة لموافقتها من قضايا المنطقة. ولكن، ابتنى الله تركيا، كما ابتنى شعوبنا، "بنخبة" ناحبة منافقة فاجرة عالية الصوت، لها أبواب إعلامية وأقلام صحفية تخرج بين الفينة والأخرى منتقدة السياسة الخارجية التركية وخاصة أسلوب رئيس الجمهورية الطيب أردوغان في التعاطي مع قضايا البلدان المجاورة كسوريا والعراق وكيف أنه بسياسته "الرعنة"، على حد زعمهم، قد عزل تركيا عن محيطها ودورها الإقليمي والدولي الفعال إذ لم يعد يوجد لتركيا سفارات في العديد من الدول المحورية في المنطقة كسوريا ومصر وإسرائيل وغيرها بسبب هذه السياسات.

لا يتواتي هؤلاء الصحفيون والكتاب اليساريين عن التصريح عن امتعاظهم من "الغزو العربي" لاسطنبول ولكنهم ويا المفارقة يرحبون بمسيرات الشواد وشذاذ الآفاق في أرض العثمانيين ويلقى الغربيون بغرائب طباعهم وتناقضاتها مع طبيعة المجتمع التركي الترحيب والتهليل من هؤلاء الكتاب، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من مشاركتهم بعضًا من نشاطاتهم السخيفة والتافهة فخورين وناسين أو متناسين أنهم "غرباء" عن البلد كأولئك "العرب" الذين اجتاحوا إسطنبول وأكلوا الأخضر واليابس.

وليس بعيداً عن تلك النفسية المريضة معالجة هذه الوسائل قصة الملوك الإيرلندي وكيف صورته على أنه البطل الذي واجه العشرات بمفرده، وهذه حقيقة.

ولكنني أتساءل ماذا لو كان عربياً؟ وأجزم بالقول إن حرباً شعواء كانت ستقودها هذه الأقلام والقنوات المسمومة، أما وسائل الإعلام وشباب موقع التواصل الاجتماعي الذين انتفاضوا للطفل السوري الذي ضرب في مدينة إزمير قبل بضعة أسابيع فهم طين هذه البلد وأصلها فمنطلقاتهم أخلاق ومبادئ تتبع من أصالة ديننا وحضارتنا.

استحضرت في هذا المقام صديقي البريطاني "ستيفين" الذي يعيش في إسطنبول منذ أكثر من عقد من الزمن وله من الأولاد عشرة ويقود هو وزوجته وأولاده فرقة غنائية أسمها "لسنا غرباء" yabancı degiliz ويتقن اللغة التركية ويحب الطعام التركي ويعيش بين الأتراك وفي أحياائهم حتى يصعب عليك من الوهلة الأولى أن تميز بينه وبين التركي الأصلي سوى لكتبه الإنجليزية الجميلة في اللحن باللغة التركية. استوقفني جمال اسم الفرقة الموسيقية ودلالته، وبادرتني خاطرة طالما فكرت فيها. هل نحن - العرب - غرباء في أرض المآذن، إسطنبول الساحرة؟

لماذا أحن إلى خبز "غزة" وأقصد مطعم "يافا" ولماذا يجتمع السوريون في مطعم "طربوش أكسراي" وال العراقيون في مقاهي "الفاتح" العراقية؟ هل لأنها تذكرهم برائحة البلد وطين الموطن وحنين الروح إلى فيافي الوطن؟! أم لأننا نشعر بالغربة ونريد أن نأوي إلى من نعرف ونألف ونتجنب الانخراط والتكيف مع الواقع الجديد؟!

سيرجع كل إلى موطنها، وستعود بلايل بلادنا تغنى على أغصان أشجارها الوارفة وستعود بلادنا وجهة الحالمين بالحرية والسلام والمحبة.

هي منحة من بين محن العرب. إذ شاءت لنا الأقدار أن ننزل بهذه البلاد فكان حرياً بكل منا أن يقدم مثلاً عظيمًا لأهل هذه

البلد، ويساهم بأخلاقه وأفعاله بتزيين الموزاييك التركي بثقافة عربية طالما أنارت عقول أبنائها ظلام أوروبا وساهمت – مع غيرها من العرقيات – في الرقي بالغرب ومجتمعاته، فكان لزاماً علينا أن نرفع راية عروبتنا بمساهماتنا ومشاركتنا النوعية في الحياة الثقافية والأكاديمية والاجتماعية في أرض ترحب بنا وتفتح لنا أبوابها.

ترك برس

المصادر: